﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤﴾ [الأنعام: 34]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تكذيب الأقوام في عهدِ النّبيِّ ﷺ، وفي كلِّ العُهودِ

لمّا سلَّى بيانُ الله تعالى رسولَ الله ﷺ، وصبَّرَه على تكذيب قومِه له، وبيَّنَ جُحودَهم بآيات الله، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ لتقدّمَ مَشهدًا عمليًّا لتلك التَّسليّةِ؛ حيث كان مَنْ سبقه من الرّسُل - عليهم السلام - الَّذين صبَروا على تكذيب قومِهم وإيذائِهم لهم، حتَّى أيَّدهُمُ اللهُ بنصرِه، وهي سُنَّةُ الله الثّابتةُ، كما بيَّنَها اللهُ لرسوله ﷺ في قَصَص المُرسَلين، على أنّه قال في الآية السّابقة: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، يعني: في الحال؛ لأنّهم يعلمون أنّك صادقٌ، وهذه الآيةُ تعني: إن كذبوك فاصبرْ، كما صَبَر مَن قبلَك مِنَ الرُّسلِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَصَبَرُواْ﴾: "الصَّبرُ: هو الحَبسُ، يُقالُ: صَبَرتُ نَفسي على ذلك الأمرِ؛ أي: حَبَستُها. والمَصبورةُ: المحبوسةُ على الموتِ. ومنَ الباب: الصَّبيرُ، هو الكَفيلُ، وإنَّما سُمّيَ بذلك؛ لأنَّه يَصبِرُ على الغُرم، يُقالُ: صَبَرتُ نَفسي به أَصبُرُ صَبرًا، إذا كَفَلتُ به، فأنا به صَبيرٌ"[2]، وصبرتُ نفسي على الأمر: إذا حبستُها عليه، قال الشّاعر:

فَصَبَرتُ عارِفَةً لِذلِكَ حُرَّةً *** تَرسو إذا نَفسُ الجَبانِ تَطَلَّعُ[3]

وأنبياءُ الله تعالى - عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ - حَبَسوا أنفسَهم،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/490.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبر).
(3) الأنباريّ، الزّاهر: 2/201.

وصبروا على تكذيبِ قومِهم وإيذائِهم لهم بالقولِ والفعلِ، فآتاهم تَقواهُم، وبلّغَهم مُناهُم، فنالوا بالصّبر أعلى الدّرجاتِ، وحققّوا مرادَ اللّه في البلاغِ الأمينِ، ومصابرةِ الحوادثِ والأزماتِ، وإعطاءِ القُدوةِ في أحلك الأوقاتِ.

2) ﴿وَأُوذُواْ﴾: "أذَيَ: الهمزة والذّال والياء أصلٌ واحدٌ، وهو الشَّيءُ تَتكَرَّهُهُ ولا تَقَرُّ - بفتح القاف وكسرها - تقولُ: آذَيتُ فلانًا أوذيهِ، ويُقالُ: بعيرٌ أَذٍ، وناقةٌ أَذيَّةٌ: إذا كان لا يَقِرُّ في مكان من غير وجَعٍ، وكأنَّه يَأذَى بمكانِه"[1]، والأذى قد يكون مادّيًّا، وقد يكون معنويًّا، فمنه ما يطالُ البدنَ، ومنه ما يصيبُ العِرْضَ، ويؤلمُ القلبَ، أو يمسُّ الدّينَ والقيمَ العليا للأمّة، وذلك أشدُّ وآلمُ على الإنسان منَ الأذى المادّيّ.

3) ﴿وَلَا مُبَدِّلَ﴾: "بَدَلَ: الباء والدّال واللّام أصلٌ واحدٌ، وهو قيامُ الشَّيءِ مَقامَ الشَّيء الذّاهبِ، يُقالُ: هذا بَدَلُ الشَّيءِ وبَديلُه، ويقولونَ: بَدَّلتُ الشَّيءَ، إذا غيَّرتَه، وإنْ لم تأتِ له بِبَدَل، وأَبدَلتُه إذا أتيتُ له ببَدَلٍ"[2]، وكلُّ ما يطرأُ عليه التّبديلُ فهو متاعٌ زائلٌ، وعرَضٌ فانٍ، غيرَ أنّ كلماتِ اللّه، وقوانينَ الكون الضّابطةَ للميزان، والمسيّرةَ للأفلاكِ، هي قدرُ اللّه الّذي لا تبديلَ له، إلّا ما شاء من أمرٍ في الوجودِ، فإنّه لا رادَّ لحُكمِه، ولا مبدّلَ لكلماتِه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النّحل: 40].

4) ﴿نَّبَإِۢ﴾: "النَّبَأُ: خَبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصُلُ به علمٌ أو غَلَبةُ ظنٍّ، ولا يُقالُ للخبرِ في الأصل نبأٌ حتَّى يتضمَّنَ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ، وحقُّ الخبرِ الَّذي يقالُ فيه نبأٌ أنْ يتعرَّى عنِ الكذب، كالتَّواتُر، وخبرِ اللّهِ تعالى، وخبرِ النَّبيِّ ﷺ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ [ص: 67 - 68]، وقال سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النَّبأ: 1 - 2]"[3]، والنّبأ: الخبرُ، تقول: نبأ ونبّأ، أي: أخبرَ، ومنه أُخذَ النّبيُّ؛ لأنّه أنبأ عنِ اللّه تعالى، وهو فعيلٌ، بمعنى فاعلٍ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(3) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (نبأ).

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

دعـوةٌ للاقتداء بـالأنـبـيـاءِ الـسّـابـقِـين في الـصّـبرِ، والـتّـحـمُّـلِ، والبلاغِ الأمينِ

هذه الآيةُ الكريمةُ تَسليةٌ لرسول الله ﷺ وتَعزيةٌ له، فيمَنْ كذَّبَه من قومِه، وأمرٌ له بالصَّبر بطريق الإيحاءِ، كما صبَر إخوتُه أولو العزم منَ الرُّسُل، ووعدٌ له بالنَّصرِ كما نُصِروا، وبالظَّفَرِ والتَّمكينِ كَما مُكِّنوا حتَّى كانتْ لهم العاقِبةُ، بعدَ ما أصابَهم منَ التَّكذيب والأذى من قومِهِمُ الشَّيءُ الكثيرُ، ثمَّ جاءَهُم نَصرُ الله في الدُّنيا، كما لهمُ الفوزُ في الآخرة، وهذه سُنَّةُ الله في نصْرِ عبادِه المؤمنين في الدُّنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصّافّات: 171 - 173]، وهذا ما أنبأ الله به رسولَه محمّدًا ﷺ من خَبرِهم، كيف نَصرَهم، وأيَّدَهم، وجعلَ لهمُ الغَلَبةَ على من كذَّبَهم وآذاهم؟!، ولرسولِ الله ﷺ وجماعةِ المؤمنينَ إلى يومِ الدّين في أنبياءِ الله ورُسُلِه - عليهم السلام - الأُسوةُ والقُدوةُ الحَسَنةُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أثَرُ العطْفِ في دلالةِ السّياقِ، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾:

تاريخُ الرُّسلِ مع أقوامِهم يَعكسُ عُمقَ الصّراعِ بين الحقّ والباطلِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ الواوُ عاطفةٌ عَطَفتْ هذه الجملةَ على قولِه السّابق: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [آية: 33]، أو على جملةِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [آية: 33]. ويجوزُ أن تكونَ الواوُ واوَ الحالِ منَ الكلام المحذوفِ قبلَ الفاء؛ أي: فلا تَحزَنْ، أو إنْ أحزَنكَ ذلك فإنَّهم لا يُكذِّبونَك، والحالُ أنّه قد كُذِّبتْ رُسُلٌ من قَبْلِك[2]، وتكذيبُ الرّسل دَيدنُ الأقوامِ في جميع العصورِ، وقد كان للنّبيِّ الخاتمِ ﷺ فيهم قدوةٌ وعِبرةٌ، وما كان القَصصُ القرآنيُّ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/200.

إلّا تجليةً للصّراعِ العنيفِ الّذي كان بين الدّعاةِ المُرسَلين وأقوامِهم؛ ليخفّفَ اللّه بذلك عن نبيِّه الأكرمِ وطأةَ البلاءِ، وآلامَ المواجهةِ مع كفَرةِ زمانِه، الّذين سلقوه بألسنةٍ حدادٍ، وأذاقوه ألوانًا منَ السِّبابِ، وأصنافًا منَ الشّتائمِ، وسلّطوا على المُستضعفين من أصحابه سوءَ العذابِ، وقد قال اللّه له: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصّلت: 43].

دلالةُ تصديرِ الكلامِ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾ الجامعةِ بين القسَمِ والتّحقيقِ:

عـمـومُ البَـلـيَّـةِ يُخفِّفُ الرّزيّةَ، والمـصـيـبـةُ إذا عمّتْ هانتْ

وتصديرُ الكلام بالقسَم في ﴿وَلَقَدْ﴾ لتأكيدِ التَّسلية لرسولِ اللّه ﷺ، تلك التَّسليةُ الَّتي تفنَّنَ بيانُ اللّه في إيرادها، فقد جاءتْ في الآية السّابقة بأسلوبِ التَّحقيق المُصدَّر بـ (قدْ)، ثمَّ أعادَ الكَرَّةَ هنا بـ (قدْ)، لكنْ بتصديرها بلام القسَم؛ وذلك لتهوين أمرِ المُصاب؛ فإنَّ عمومَ البَليَّةِ ربَّما يُخفِّفُ شدَّةَ وطأتِها، فكأنَّ اللّه تعالى يقولُ لنبيِّه: لقد أصابَ الرُّسلَ من قبلك مثلُ ما أصابَك، فصبَروا ثمَّ نُصِروا، فلتكنْ مُقتديًا بهم، مُعتَدًّا بعُدَّتِهم منَ الصَّبرِ وعدمِ الجَزَع، فستُنصرُ كما نُصِروا، وستَسودُ كما سادوا، ونظيرُ قولِه تعالى في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ قولُه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾ [فاطر: 4]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجّ: 42]، وكأنّ هذا الصّراعَ لونٌ منَ الابتلاء، لا تنأى عنه أيّةُ رسالةٍ، ولا يسلمُ منه أيُّ رسول، وتلك سنّةُ اللّه في خلْقِه، لا مناصَ منها، ولا فِكاكَ عنها.

دلالةُ اتّصالِ ﴿كُذِّبَتْ﴾ بتاءِ التّأنيث، والأفعالِ بعدَها بواوِ الجمْعِ:

الـفُـروقُ بين حـروف المـعـاني في الاستـعـمالِ والدّلالةِ

لَمّا كانَ المحكيُّ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾، هو التَّكذيبُ لا كونُه من مُعيَّن، بُنِيَ للمفعول، وقُرِنَ بتاءِ التَّأنيث، الَّتي تنوبُ عنِ الجماعة، وذلك عندما يكونُ فاعلُ الفعلِ جمعَ تكسير، وهو ﴿رُسُلٌ﴾

هنا، وفيه: "إرشادٌ له عليه الصَّلاةُ والسّلامُ إلى الاقتداءِ بمن قبلَه منَ الرُّسلِ الكرامِ عليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ في الصّبرِ على ما أصابهُم من أُمَمهم، من فنون الأَذيَّة، وعِدَةٌ ضِمنيّةٌ له عليه الصّلاةُ والسّلامُ بمثل ما مُنِحوه منَ النّصرِ"[1]، ولَمّا أنْ جحدَ القومُ رُسُلَهم مع ما يَعرفونَ من صِدقِهم وأمانتِهم، كما فُعِل بكَ يا محمَّد ﷺ كانَ هذا الحالُ سببًا في صَبْرِ الرُّسل، فقال: ﴿فَصَبَرُواْ﴾ أي: صَبَر الرُّسُلُ على تكذيبِ قومِهم وإيذائِهم لهم، وذلك بقولِه: ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾، أي: فصبروا أيضًا على ما أوذوا، فجاءت هذه الأفعالُ عند ذلك مُقترنةً بواوِ الجماعةِ، تعبيرًا عن ضميرَيْهما المتَّصلَيْن المذكَّرَيْن: بمعنى صبرِ جميعِ الرُّسلِ، على تكذيبِ وإيذاءِ جميعِ قومِهم[2].

أثرُ البناءِ للمفعولِ في توجيه المعنَى:

تـمـيّـزَ الـعـربُ بوضُوحِ المواقفِ، وصدْقِ المشاعرِ، تجاهَ الـمُؤالِفِ والمُخالِفِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ بُني الفعلُ ﴿كُذِّبَتْ﴾ للمفعول، فحُذِف الفاعلُ اختصارًا؛ لكثرة الأقوامِ المُكذِّبين، وعدمِ تَعلّق الغرضِ بذِكرهم؛ "أي: إنّ الرّسل الّذين أُرسلوا قبلك قد كذّبتْهم أقوامُهم، فصبروا على تكذيبِهم، وإيذائِهم لهم إلى أنْ نصرَ اللّه الرّسلَ بالانتقام من أعدائهم المكذِّبين لهم"[3] وفي سياق هذه الآية وموقعِها بعدَ الّتي قبلَها - وكلتاهما في تَسليَةِ رسولِ اللّه وتَصْبيرِه - إيحاءٌ برجاحةِ العقولِ عند بعض العرب، مقارَنةً بعقولِ مَن سبقَهم منَ الأمم، بدليلِ أنَّ الأُمَمَ كذَّبتْ رُسُلَها باعتقادِ قلوبِها، ونُطقِ ألسنتِها، والعَرَبُ كذَّبوا باللِّسان، وأيقَنوا بصدْقِ الرَّسول ﷺ بعقولهم الَّتي لا يَروجُ عندها الزَّيفُ، وإنْ كان القاسِمُ المشتركُ بين الفريقين الكِبرَ والعِنادَ في قَبول الحقِّ[4]، والمسألة نسبيّةٌ، كثرةً وقلّةً،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/127.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/98، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/201.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/111.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/201.

وعمومًا وخصوصًا، ويبقى الكفرُ ملّةً واحدةً، وهو كفرٌ مهما أوغلَ في الزّمن، وتلوّنَ في الكيّفيّات، وتنوّعَ في الطّرائقِ والوسائلِ.

سِرُّ اختيارِ لفظِ ﴿رُسُلٌ﴾ دونَ ما يُقاربُه في المعنَى والصِّيغةِ:

الرُّسُلُ أصحابُ شريعةٍ جديدةٍ وكُلُّهم تعرَّض للتَّكذيبِ والأذَى

لَمَّا كانَ المقامُ هنا لِتَسْلِيَةِ الرَّسولِ ﷺ ناسبَ أن يذكرَ ابتلاءَ الرُّسُلِ بتكذيبِ أُمَمِهم على اختلافِ أحوالِ الرُّسُل، ذلك أنَّ الرَّسولَ من أتى قومَه بشريعةٍ جديدةٍ، ليُبلِّغَها للنّاس، وكانَ محمَّدٌ ﷺ خاتمَ الرُّسُلِ، ومَنْ أتى بشريعةٍ جديدةٍ كان قومُه أشدَّ ضراوةً في تكذيبِه ومناصبتِه العَداء، لا كالَّذي دعا قومَه إلى شريعةٍ سابقةٍ - وهو النَّبيُّ - اعْتادَ النّاسُ على دعوتِهم لها ما بين مُؤمنٍ ومُكذِّب، فإذا كانَ الرُّسُلُ قبلَك يا محمَّد ﷺ قد أصابَهم ما أصابَهم منَ التَّكذيبِ الشَّديدِ، معَ العداوةِ والأذى، فصبروا على ما ألمَّ بهم من قومِهم حتَّى إنَّ منَ الرُّسُلِ من قتلَهم قومُهم، كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ [آل عمران: 183]، فلْتصبرْ كما صَبروا، فإنَّ مهمَّتكَ في تبليغِ شريعتِكَ كَمُهمَّتِهم، بل هي أشدُّ وطئًا وأصعَبُ طريقًا، فهي الشَّريعةُ الجديدةُ الخاتمةُ، فما عليكَ إلّا التَّأسّي بهم بالصَّبرِ الَّذي يعقُبُه النَّصرُ، فإنَّ ذلك سُنَّةُ الرُّسلِ قبلَك"[1]، والنّصرُ الموعودُ للصّابرين، يحتملُ أن يكون بطريق إظهارِ الحُججِ والبراهين، ويحتملُ أن يكون بطريق القهْرِ والغلبةِ، أو بإهْلاكِ الأعداء"[2].

دلالةُ تعلّقِ حرفِ ﴿مِّن﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾:

تاريخُ الصّراعِ بين الرُّسلِ وأقوامِهم، عِبرةٌ وتَسريةٌ وتَسليةٌ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فيه لفظ ﴿مِّن﴾، إمّا مُتعلِّقةٌ بـ ﴿كُذِّبَتْ﴾، أو بمحذوف وقعَ صفةً لـ ﴿رُسُلٌ﴾[3]؛ أي: وباللّه لقد كُذِّبتْ مِن قبل تكذيبِك رُسُلٌ أولو شأنٍ خطيرٍ، وذوو عددٍ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/490، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 4/185 - 186.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 3/25.
(3) العُكبَريّ لا يُجيز أن يكونَ قولُه: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ صفةً لرُسل؛ لأنَّه زمان، والجُثَّةُ لا توصَفُ بالزَّمان، وإنَّما مُتعلِّقةٌ بـ﴿كُذِّبَتْ﴾ فقط. يُنظر: العُكبريّ، الإملاء: 1/240.

كثيرٍ، أو كُذِّبتْ رسلٌ كانوا مِن زمانٍ قبلَ زمانك[1]، وكونُها مِن قبْلك، فهي صفحةٌ منَ التّاريخ مفتوحةٌ، ترى فيها عِظمَ البلاءِ، وشدّةَ المُصابرةِ، لتُدركَ أنّك لستَ الأوّلَ فيما تلقاه، ولكنّه مسلكُ الحقِّ في كلّ العصورِ، وفي ذلك عِبرةٌ لك، وتسليةٌ لقلبِك، وتقويةٌ لعزيمتِك في التّحمّلِ، كما فعل إخوانُك الأنبياءُ من قبْلك، وما منهم إلّا له مقامٌ معلومٌ.

دلالةُ عطْفِ العامِّ على الخاصِّ، في قولِه تعالى: ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَأُوذُواْ﴾ عطفٌ على ﴿كُذِّبُواْ﴾ داخلٌ في حُكمِه[2]؛ لأنَّ التَّكذيبَ أذًى، وهو فردٌ من أفرادِه، فيكونُ الأذَى أعمَّ مِنَ التَّكذيبِ؛ لأنَّ الأذَى هو ما يَسوءُ ولو إساءةً ما، ويُطلقُ كذلك على الشَّديدِ منه، فيكونُ من باب عطفِ العامّ على الخاصّ، والمعنى: أنّ الرّسل قبْلك، على اختلاف أزمانِهم وشرائعِهم، قد لاقَوْا ألوانًا منَ التّكذيب المُقيتِ، والإيذاء المُميتِ، كما تجدُ أنت الآن من قومِك، فصبروا حتّى أيّدْناهم بالنّصرِ السّاحقِ، فما عليك إلّا أن تحذوَ حذْوَهم، وتسيرَ على شاكلتِهم، لينالَك ما نالهم، وليس ذلك ببعيدٍ.

أفـادَ العَـطـفُ حَتميّةَ الصّراعِ، وأنَّ النّصرَ آتٍ لا محالةَ

نُكتة تعْديةِ فعْلِ الصّبرِ بالحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ﴾:

الحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ يُفيدُ الاسْتعلاءَ، أي: صبرَ الرُّسُلُ مُستعلينَ بصبرِهم، على تكذيبِ مَنْ كذَّبَهم، ولم يُبالوا بتكذيبِهم؛ بلِ اسْتمرّوا في دعوتِهم ورسالتِهم، صابرينَ مُحْتسبين، وقد كانت الأحداثُ تتكرّرُ وتتجدّدُ "فاحْتيجَ إلى تكرارِ تَسْليَتِه وأمْرِه بالصّبر المرّةَ بعد المرّةِ؛ لأنّ الحُزن والأسفَ اللّذَين كانا يَعرِضان له ﷺ من شأنِهما

تَـعـالِي الـرُّسُـلِ عـلـى تـكـذيـبِ قومِهم، من عُلوِّ الهِمّةِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198.

(2) العكبريّ، الإملاء: 1/240.

أن يتكرّرا بتَكرُّر سببِهما وبتذكرِّه حتّى عند تلاوة الآياتِ الواردةِ، في بيانِ حالِ الكفّارِ، ومحاجّتِهم وإنذارِهم"[1].

سِرّ الحرف ﴿مَا﴾ ودلالتُه، في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾:

﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿مَا كُذِّبُواْ﴾ مصدريَّةٌ، أي: فصَبروا على تكذيبِهم، والمعنَى: فتَأسَّ بهم في الصَّبرِ على التَّكذيبِ والأذَى حتَّى يأتيَكَ النَّصرُ والظَّفَرُ كما أتاهم[2]، وعليه " فهناك رُسلٌ كثيرون من رُسُلِ اللّه، قد كُذّبوا من أقوامِهم، وأوذوا في أنفسِهم من سُفهاءِ قومِهم، ولكنّهمُ اعتصموا بالصّبر، واحتملوا الأذَى في سبيلِ الرّسالةِ الكريمةِ الّتي شرّفهم اللّه بها"[3].

الصّبرُ على تكذيبِ الكَفرةِ وأذاهُم دَيْدنُ الرّسلِ الرّاسِخين

دَلالةُ بناءِ ﴿كُذِّبُواْ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه، في الآيةِ الكريمةِ:

لمّا كانَ المَحكيُّ هو التَّكذيبَ، لا كونَه من مُعَيَّنٍ، بُنيَ للمفعول، فالحاصلُ هو تكذيبُ الرُّسُلِ لما أَوْحَى اللّهُ به إليهم من دين الإسلام[4]، ونذكرُ أنّ الكفرةَ والمشركينَ يَستقبلون رسولَهم، بإيذاءٍ يناسبُ الرّسالةَ الّتي جاء بها، فإن كان الإرسالُ على مستوى القبيلةِ أو القوم، كانتِ المواجهةُ باعتبار ذلك، وإن كانت على مستوى أعلى، كانتِ المواجهةُ أكبرَ، وفي حالةِ الرّسالةِ الخاتمةِ فإنّ الإرسالَ يكونُ على مستوى العالَم برُمّته تأكيدًا لمضمونِ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107] وقولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: 28] وعليه فستكونُ المُهمّةُ أكبرَ والمواجهةُ أخطرَ "وما دام محمّدٌ ﷺ رسولاً إلى النّاس كافّةً، فعليه أن يجدَ المتاعبَ الكثيرةَ ويتحمّلَها، وقد أعدَّه اللّه وهيّأه لذلك، وقد أخذ الرّسلُ السّابقون منَ الإيذاء على قدْرِ دعوتِهم، أمّا رسولُ اللّه ﷺ فهو للنّاس كافّةً، ولا

المُعوَّلُ عليه في السّياقِ هو التّكذيبُ، الّذي هو محورُ الصّراعِ

(1) رضا، المنار: 7/315.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/490، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/198.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 4/160.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/98.

رسالةَ من بعدِه، لذلك يتجمّعُ ضدَّ هذا الرّسولِ وهذه الرّسالةِ أقوامٌ كثيرون"[1]، وتبقَى المواجهةُ شاملةً ومفتوحةً عبر العصورِ ويبقَى التّكذيبُ واردًا إلى أن يرثَ اللّه الأرضَ ومَنْ عليها.

سرُّ عطْفِ الإيذاءِ على التّكذيبِ:

عـطـفُ الـعـامِّ على الخاصِّ من بلاغةِ السّياقِ

في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ جاء عَطفُ الإيذاءِ على التَّكذيبِ من بابِ عَطْفِ الأعمِّ على الأخصّ، والأذَى أعمُّ منَ التَّكذيب؛ لأنَّ الأذَى هو ما يَسوءُ، ولو إساءةً ما، قالَ تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: 111]. ويُطلَقُ على الشَّديدِ منه، فالأذَى اسْمٌ اشْتُقَّ مِنْ أَذِيَ: إذا جعلَ له أذًى وأَلْحقَه به[2]، والحاصلُ أنّ التّكذيبَ قد طال الرُّسلَ كلَّهُمْ، كما وقع مع النّبيِّ الخاتمِ فقابلواْ ذلك الحالَ بالصّبر على التّكذيبِ والإيذاءِ حتّى أتاهم النّصرُ، بتمكينِهم في الأرض وهلاكِ قومِهم، لذلك وجّهَ اللّه الخطابَ للرّسولِ ﷺ فقال له: "فاصبرْ يا أشرفَ الخلقِ، كما صبرواْ، تظفرْ كما ظفرواْ، بل أنت أولى بالتزام الصّبر؛ لأنّك مبعوثٌ إلى جميع العالمين، ولا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللّهِ بالنُّصرة، فإنّ وعْدَ اللّه إيّاك بالنّصرِ، حقٌّ وصدقٌ، ولا يُمكنُ تطرّقُ الخُلفِ والتّبديلِ إليه"[3].

ورودُ الحرفِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ مفيدًا الغايةَ:

مَـن صَـبرَ على بلاءِ اللّه لا يَلبثُ أن يَحوزَ نَصرَ اللّه

وقولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيَّةٌ أفادَتْ غايةَ ما قبلَها، وهو التَّكذيبُ، والأذَى، والصَّبرُ عليهما، فإنَّ النَّصرَ كان بإهلاك المكذِّبينَ المُؤْذين، فكانَ غايةً للتَّكذيب والأذى، وكان غايةً للصَّبرِ الخاصِّ، وهو الصَّبرُ على التَّكذيب والأذَى، وبقيَ صبرُ الرُّسُل على أشياءَ ممّا أُمِرَ ﷺ بالصَّبر عليه، "وقد دلَّ على أنّ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3600.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/201.
(3) محمّد بن عمر نوويّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/314.

موضعَ الصّبرِ هو تكذيبُهم وإيذاؤُهم، وكانوا صابرين حتّى أتاهم نصرُ اللّه تعالى، وأنّه مع الصّبرِ الأجرُ، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: 214]"[1].

سِرُّ اسْتعمالِ مادّةِ الإتيانِ مع النَّصرِ:

تحقُّقُ وُقوعِ النَّصرِ بعد انتظارِه، أمرٌ محسومٌ لا ريبَ فيه

الإتيانُ في قولِه: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ﴾، مجازٌ في وقوعِ النَّصرِ بعدَ انْتظارِه، فشبَّهَ وقوعَه بالمجيءِ من مكانٍ بعيدٍ كما يجيءُ المنادَى المنتَظَرُ، وهذا يدلُّ على تحقُّقِ أمرَيْن: الأوَّلُ: إهلاكُ المكذِّبينَ المُؤْذين، فإنَّ النَّصرَ كان بإهلاكِهم. والثّاني: وقوعُ النَّصرِ لا مَحالةَ، فهو أمرٌ متقرِّرٌ لا مَردَّ له، وأنَّه متوجِّهٌ إليهم لا بدَّ من إتيانِه، فإنَّ القائلَ: ﴿أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ﴾، هو اللّهُ [2] ﷻ ومجيءُ النّصر: "غايةٌ للصّبر، وفيه إيذانٌ بأنَّ نَصرَه تعالى إيّاهم أمرٌ مقرَّر لا مردّ له، وأنّه متوجِّهٌ إليهم، لا بدّ من إتيانِه البتّةَ"[3].

دلالةُ المجازِ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ﴾:

مَن نالَ نصرَ اللهِ، أحاطَه بلُطفِه وحَمَاهُ

الإتيانُ في قولِه تعالى: ﴿أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ﴾ مجازٌ في وقوعِ النَّصر بعدَ انتظاره، فشبَّه وقوعَه بالمجيءِ من مكانٍ بعيدٍ كما يَجيءُ المُنادَى المُنتظَرُ[4]، وفي هذه الغايةِ مع ما يَليها إيذانٌ بأنَّ نصرَه تعالى إيّاهم أمرٌ مُقرَّرٌ لا مرَدَّ له، وأنَّه مُتَّجهٌ إليهم لا بُدَّ من إتيانه.

والمعنى: "لقد قوبلَ رُسلٌ قبلَك يا محمّد بالتّكذيبِ والإيذاءِ من أقوامِهم، كما تجدُ أنت الآن من قومِك، فصبروا حتّى نصرْناهم، فاصبرْ أنت مثلَهم"[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2485.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/198، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/202.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/128.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/202.
(5) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 465.

معنى الإضافة في ﴿نَصۡرُنَا﴾ وسِرُّ الالتفاتِ:

مَن نصرَه الله، فلا غالبَ له سِواه

في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ جاء الالتفاتُ إلى نونِ العَظَمة، وذلك في كلمة: ﴿نَصۡرُنَا﴾؛ لإبراز الاعتناءِ بشأنِ النَّصرِ[1]، ومع أنَّ الخطابَ لرسولِ الله ﷺ؛ فإنّ العبرةَ والمغزَى المُفادَ عامٌّ، وهو حثُّ أصحابِ الدّعوةِ إلى الله على التَّحلّي بالصّبر، وعدمِ استعجالِ قَطْفِ الثّمارِ، والثّقةِ في نصر الله الّذي لا يتخلّفُ عن الصّادقين الصّابرين، وفائدةُ هذا الالتفات - بالإضافةِ إلى تَطْريَةِ الكلامِ وتنويعِه - "إسنادُ النّصرِ إلى ضميرِ المُتكلّمِ المُشعرِ بالعظَمةِ، والحافزِ على وجوبِ مداومةِ الجهاد، والنّضالِ، والصّمودِ، في سبيل تحقيقِ المطمَحِ الكبيرِ، وتأديةِ الرّسالةِ السّاميةِ المثلَى"[2].

دلالةُ العَطفِ، وأثرُه في المعنَى:

كلماتُ اللهِ وَحيُه المُبينُ، ووعدُهُ رسُلَه بالنَّصرِ والتّمكينِ

جُملةُ: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ عطفٌ على جُملةِ: ﴿أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا﴾، ويمكنُ أن تكونَ اعتراضًا مُقرِّرًا لما قبْله من إتيانِ نصرِه إيّاهم، وكلماتُ الله وحيُه للرُّسُلِ على وعدِه إيّاهم بالنَّصر، وهو ما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصّافات: 171 - 173]، وقولُه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: 21][3]، وهو ما دَلَّت عليه إضافةُ النَّصر إلى ضمير الجلالةِ في قولِه: ﴿نَصۡرُنَا﴾، وغَلَبةُ المرسَلينَ تعني هَلَكةَ المُكذِّبين، وهذه سُنَّةُ الله في الأُمم المتكبِّرةِ الكافرةِ، وهذه السُّنَّةُ المكتوبةُ في أزَل الله وقدَره يمكنُ أن تكونَ هي كلماتُ الله، وأيًّا كان المرادُ بكلمات الله، فالسّياقُ يَحملُ في ظاهره وباطنه بِشارةَ النَّصر لرسول الله ﷺ، كما نصرَ الله الرُّسُلَ الَّذين تَوارَدوا قبْلَه.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198.
(2) درويش، إعراب القرآن: 3/101.
(3) درويش، إعراب القرآن: 198 - 199/2.

دلالةُ الكِنايةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

كلماتُ الله لا يَعرُوها تغييرٌ، ولا يطالُها تبديلٌ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ نجدُ أنّ "نَفيَ المُبدِّلِ في قولِه: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ﴾ كنايةٌ عن نَفي التَّبديل؛ أي: لا تبديلَ؛ لأنَّ التَّبديلَ لا يكونُ إلّا من مُبَدِّل؛ ومعناه: أنَّ غيرَ الله عاجزٌ عن أن يُبدِّلَ مُرادَ الله، وأنَّ اللهَ أرادَ أن لا يُبدِّلَ كلماتِه في هذا الشَّأنِ"(1)، وهو القائلُ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصّافّات: 171 - 173]، والقائلُ أيضًا: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: 21]، وذهب بعضُ العلماء إلى أنّ كلمات الله تضمُّ ما هو أعمُّ منَ الوعْدِ بالنّصرِ، قال أبو زهرة: "وفسّر بعضُ العلماء كلماتِ الله تعالى بما هو أعمُّ منَ النّصر، وهو شرائعُه، وآياتُه، وتوحيدُه، وصفاتُه، ونصرُه، أي: إنَّهُ إذا كان النّبيُّ ﷺ يُشفقُ على رسالته أن يَعروها تغييرٌ؛ بسبب تكذيبِهم، وإيذائِهم، فلا مُبدّلَ لكلماتِ الله تعالى، ونحن لهذا نميلُ"(2).

دلالةُ الالتفاتِ إلى اسمِ الجلالةِ، في قوله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

خلودُ كلماتِ الله ورُسوِّها ضمانٌ لانتصارِ الحقِّ وأهلِه

"الالتفاتُ إلى الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لتربيةِ المهابةِ في القلوبِ مع الإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ، فإنَّ مِن موجباتِ الألوهيَّةِ أنْ لا يُغالبَه أحدٌ في فعلٍ منَ الأفعال، ولا يقَعُ منه تعالى خُلفٌ في قولٍ منَ الأقوال"(3)، وإضافةُ الكلماتِ إلى الله من شأنِه أن يُعطيَها كثيرًا منَ التّعظيم والجلالِ؛ لتبقَى خالدةً على المدى، ضامنةً لانتظام الكونِ وتوازُنِه، والله هو الّذي أيّدَ رُسلَه بعونِه، وأحاطهم بتأييدِه، وكتب لهم السّلامةَ والنّجاةَ، ولأعدائِهمُ الدّمارَ والهلاكَ، تحقيقًا لما ذكرَه من عدمِ تبدُّلِ كلماتِ الله، وهو تعالى لا يخلفُ الميعاد.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/202.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2486.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/199.

نُكتةُ تكريرِ لفظِ ﴿وَلَقَدْ﴾:

تحقيقُ النَّصرِ وتأكيدُه لرسولِ اللهِ ﷺ من عطائِه الجَزِلِ له

تكرّرت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِىْ﴾ حيث إنّ (قَدْ) حرفُ تحقيقٍ، فلمّا تكرَّرتْ، وجاءتْ في الأولى في جُملةٍ قَسَميَّةٍ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ لتسليته ﷺ ببيانِ ما ابْتُلِيَ به الرُّسلُ، فإنَّ عمومَ البَليّةِ ربَّما يُهوِّن من أمرِها بعضَ تهوينٍ، جاءتْ هنا كذلك في جملةٍ قَسَميَّةٍ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِىْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، لتحقيقِ ما مُنِحوا منَ النَّصرِ، وتأكيدِ ما في ضمْنِه منَ الوعدِ لرسولِ اللهِ ﷺ بالنَّصرِ، أو لتقريرِ جميعِ ما ذُكِرَ من تكذيبِ الأُممِ، وما ترتَّبَ عليه من أمورٍ في إهلاكِ المُكذِّبينَ، ونَصْرِ رُسُلِ اللهِ المبلِّغين[1].

دلالةُ المجازِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِىْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

تصويرُ المَعنويِّ في صُورةِ المحسوسِ، أسلوبٌ بلاغيٌّ مأنوسٌ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِىْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ صدّرت الآيةُ بقولِه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ﴾، وهو مجازٌ في بلوغ ذلك وإعلام النَّبيِّ ﷺ بالأنباء؛ حيث شبَّه بلوغَ النَّبأ النَّبيَّ ﷺ بالمجيءِ من قلبِ الأحداثِ الَّتي وقعتْ للأنبياء مع أقوامِهم، وكأنَّها ماثلةٌ أمامَهُ بعد انتظارِ ورودِها، وهي صورةٌ تعبيريّةٌ بديعةٌ، تُصوّر المعنويَّ في صورة المحسوسِ، وتُؤكّدُ مُطلقَ قدرةِ الله في تصرّفِه في المكانِ والزّمانِ والأحداثِ، وأنّه لا يُحجب عنه غيبٌ، ولا يَندُّ عن علمِه وتصريفِه أمرٌ.

نُكتةُ العُدولِ منَ الإتيانِ إلى المَجيء:

مع تحمُّلِ مشاقِّ المسارِ جاءَ الرُّسلَ عظيمُ الانتصارِ

في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ ثمّ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِىْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عدولٌ منَ الإتيانِ إلى المَجيء فلَمّا كانَ الإتّيانُ مجازًا في وقوعِ النَّصرِ بعد انْتظارِه، كانَ المجيءُ مجازًا في بلوغِه، وإعْلامِ النَّبيِّ ﷺ به، ففي الإتيانِ مَسْلاةٌ لرسولِ اللهِ ﷺ، ودعوةٌ للصَّبرِ حتَّى يأتيَ النَّصرُ، وفي المجيءِ لنبأِ المرسلينَ بيانٌ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/199.

لعظيم ما تحمَّلَه الرُّسُلُ من قبلِه، ﷺ ولعظيمِ ما قوبِلوا وجوزوا به منَ النَّصرِ[1].

تضافُرُ القَسَمِ وحرفِ التّحقيقِ في البيانِ والتأكيدِ:

تأكيد ما مُنِحَه رسـولُ اللـه ﷺ مـنَ الـوعْدِ بالنّصرِ

قولُه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، جاءتْ هذه الجملةُ مُصَدَّرةً بالقسَم مع التَّحقيق بلفظ ﴿وَلَقَدْ﴾؛ لتأكيدِ ما منحهمُ اللّهُ منَ النَّصر، وما أُنجِزَ منَ وعد الله تعالى لرسول الله ﷺ في ضمن الوعدِ بالنَّصر مِن نشرِ رسالة الإسلام، وغَلَبتِه على الدّين كُلِّه، والتَّمكينِ لأصحابها تحت لواء رسولِ الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصّف: 9].

استتار فاعل ﴿جَآءَكَ﴾:

أهمّيّةُ الإضمارِ في الاختصارِ، وتجنُّبِ التّكرارِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ﴾: فاعلُ ﴿جَآءَكَ﴾ مُضمَرٌ، وفيه وجهان: الأوَّلُ: المجيءُ، والثّاني: النَّبأُ، ودلَّ على الثّاني ذِكرُ الرُّسُلِ؛ لأنَّ من ضرورة الرَّسولِ الرِّسالةَ، وهي نَبَأٌ، وعلى كلا الوجهَين السّابقَين يكونُ قولُه: ﴿مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ حالًا من ضمير الفاعل، والتَّقديرُ: من جنس نبأِ المُرسلين، وإنّما أُضمر الفاعلُ للاختصار، وتجنّبِ التّكرار فيما لو ظهرَ.

دلالةُ ﴿مِن﴾، على أنّ الإنسانَ لا يُؤتَى منَ العلْمِ إلّا بعضَه:

الأنبـاءُ تُـمثّلُ صورةً متكاملةً، لمعاناةِ الرّسلِ في البلاغِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تحوي الحرفَ (مِن)، وفيه وجهان: الأوَّلُ: إمّا اسمٌ بمعنى (بعض)، فتكون فاعلًا مُضافًا إلى النَّبأ، وهو مُستلٌّ من قولِه تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: 78]. والثّاني: أن تُجعلَ صفةً لموصوفٍ محذوفٍ تقديرُه: لقد جاءكَ نَبَأٌ مِن نَبأ المرسَلين. ونبأُ المرسَلين بمعنى أنبائِهم، والنَّبأُ: هو الخبرُ عن أمرٍ عظيمٍ، كما قال

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/202 - 203.

تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النَّبأ: 1 - 2]، وقال تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود: 120][1]، ولئن جاءه بعضُ الأنباء، فإنّ في الأنباء كلِّها ما تشيبُ من هولِه الولْدان، ولكنّ اللّه رحمةً بعبادِه لم يُخبرْهم إلّا ببعضها، وهي كافيةٌ لتعطيَ صورةً متكاملةً عمّا كان عليه الرّسلُ مع أقوامِهم، وقد عبّرت القَصصُ القرآنيّةُ عن ذلك، وأغفلتْ ما ليس ضروريًّا في البناءِ القَصصيِّ، والتّراكيبُ السّياقيّةُ المُعبّرةُ عن ذلك الصّراع المريرِ، بين الحقِّ والباطلِ، والإيمانِ والكفرِ، ممّا جاء في غاية الرّوعةِ والمُتعةِ والفائدةِ.

الغرضُ من استعمالِ مادّةِ (النّبأ):

النَّبأُ الخبرُ الأعظمُ المُساقُ وهو الأنسبُ هنا للسِّياقِ

جاءَ استعمالُ مادَّةِ النَّبأِ في قولِه تعالى: ﴿مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنَّ النَّبأَ الخَبرُ عن أمرٍ عظيمٍ، قالَ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النَّبأ: 1، 2]، وهنا في قولِه تعالى: ﴿مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي: خبرِ المرسَلينَ العظيمِ، وهو تأكيدُ نصرِ اللّهِ لهم نصرًا عظيمًا بعد تحمُّلِهم وصَبْرِهم على مشاقِّ الدَّعوةِ وتبليغِ رسالةِ الإسلامِ لأقوامِهم[2].

العُدولُ في الصِّيغةِ من ﴿رُسُلُ﴾ إلى ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

مناسبةُ كلٍّ منَ الصِّيغتَيْن لما تقدَّمَهما منَ التَّكذيب والنَّبأ

عدَلَ بيانُ اللّهِ تعالى عن: ﴿رُسُلُ﴾ في صدْرِ الآيةِ: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ﴾، إلى: ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ في ذيْلِ الآية: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنَّ من ضرورةِ الرَّسولِ الرِّسالةَ، وهي نبَأٌ، وقد دَلَّ عليه ذكرُ الرُّسُل أوَّلًا، ثمَّ خُتمتِ الآيةُ بما فيه بيانُ حالِ هؤلاءِ الرُّسُلِ، وهو أنَّهم مُرسَلونَ بمهمَّةِ ذاكَ النَّبأِ، وهو تبليغُ الرِّسالة، أي: ولقد جاءك هذا الخبرُ العظيمُ، من تكذيبِ أتباعِ الرُّسُلِ للمرسَلين إليهم، والصَّبرِ والإيذاءِ إلى أَنْ نُصِروا.

(1) العكبريّ، إملاء ما منّ به الرّحمن: 1/240.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/199.

فالرَّسولُ يقتضي إطلاقَ لسانِه بالرِّسالةِ المكلَّفِ بتبليغِها للنّاس، ولذلك أُسنِدَ إليه التَّكذيبُ، في قوله: ﴿كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾، أي: تكذيبُ ما نطقتْ به ألسنتُهم، من دعوةِ النّاسِ لرسالةِ ربِّهم. والمرسَلُ: يقتضي إطلاقَ غيرِه له، وهو المرسِلُ وهو اللّهُ ﷻ، ولذلك أُسنِدَ إليه النَّبأ، فقال: ﴿مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الإيذاء) و(الضَّرر):

الإيذاءُ: إحداثُ ضَرَرٍ في النَّفْسِ أو الجسمِ دُنيويًّا أو أُخرويًّا، فهو أعمُّ من الضَّررِ

الأذَى: ما يصلُ إلى الإنسانِ منَ الضَّررِ، إمّا في نَفْسِه أو جسمِه، أو تبعاتِه، دُنيويًّا كان أو أُخرويًّا، قالَ تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]، وقالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التَّوبة: 61]، وقالَ ﷻ: ﴿وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: 34]، يقالُ: آذَيْتُه أو أَذَيْتُهُ إيذاءً وأَذيَّةً وأذًى[2]، وقال الخطابي: الأذى الشّرُّ الخفيفُ، فإن زاد فهو ضررٌ، والأذيُّ، كَغَنيّ: الشّديدُ التأذّي[3]، وأمّا الضُّرُّ: فضدُّ النَّفع، والضَّررُ، أي: لا يضرُّ الرَّجلُ أخاهُ فَيُنقِصُه شيئًا من حقِّه، والضُّرُّ: يكونُ من حيث لا يُعلمُ المقصودُ به، ويُقال: ضَررتُ فلانًا من حيث لا يعلمُ، والضُّرُّ: سوءُ الحال، إمّا في نَفْسه، وإمّا في بَدَنِه، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلَّةِ مالٍ وجاه، وقولُه تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: 84]، فهو مُحتمِلٌ لثلاثتِها[4].

(التَّبديل) و(التَّغيير):

التَّبديلُ قيامُ الشَّيءِ مَقامَ آخرَ، والتَّغييرُ تحويلُه إلى صورةٍ مغايرةٍ

تبيَّن في شرح المفردات أنَّ التَّبديلَ قيامُ الشَّيءِ مَقامَ الشّيءِ الذّاهبِ، يأتي بمعنى التَّغييرِ، وإنْ لم يُؤتَ له ببَدَل، تَبديلُ الشَّيء

(1) العكبري، الإملاء: 1/240، والسَّمين، الدُّرّ المصون: 4/606، والرّاغب، المفردات: (رسل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذي)، والرّاغب، المفردات: (أذي).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أذي).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 328، والرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النِّهاية: (ضَرَرَ)، والكفوي، الكلّيّات: 3/147.

والإتيانُ بغيره، ثمّ إنّ تبديلَ الشّيءِ لا يكون إلّا برفْعِه ووضْعِ آخرَ مكانَه، هو غيرُ الإتيان بغيره، ولو كان تبديلُه والإتيانُ بغيره سواءً لم يكن لقولِه تعالى: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ [يونس: 15] معنى في هذا السّياقِ[1]، وأمّا التَّغييرُ فيُقالُ على وجهَين: الأوَّلُ: لتغييرِ صورةِ الشَّيء دون ذاتِه، يُقالُ: غيَّرتُ داري، إذا بَنيتُها بناءً غيرَ الَّذي كان، والثّاني: لتبديلِه بغيره، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرَّعد: 11]، وسياقُ النَّصِّ القرآنيِّ يناسبُه معنى التَّبديل لا التَّغيير، فلا يمكنُ أن تُبدَّلَ كلماتُ اللّه بشيءٍ يقومُ مقامَها، ولا أن تُغيَّرَ إلى بَدَل، فالأمرُ والشَّأنُ في ذلك للّه وحدَه، لا لأحدٍ سواه ﷻ.

(النَّبأ) و(الخبر):

أنبأ بمعنى أخبرَ بعظيمٍ طَريفٍ، وأخبرَ أعلمَ بما هو مألوفٌ

نبَّأ وأنبَأ؛ أي: أخبرَ، ومنه أُخذَ النّبئ؛ لأنّه أنبأ عنِ اللّه تعالى، وهو فعيلٌ، بمعنى فاعل. قال سيبَويه: ليس أحدٌ منَ العرب إلّا ويقول: تنبّأ مسيلمةُ بالهمز، غير أنّهم تركوا الهمزَ في النّبيّ[2]، وأمّا الخبرُ فهو الإخبارُ بما يعلمُه المخبَرُ، وبما لا يَعلَمه، ولهذا يُقال: تخبرُني عن نَفسي، وعمّا عندي، ولا يقالُ: تُنبئُني عن نفسي، وعمّا عندي[3]، والخبرُ لا يتضمَّنُ الأخبارَ العظيمةَ، فإذا تضمَّنَها سُمّيَ نبأً، وكما تقدَّمَ في شرح المفردات النَّبأُ لا يُطلَقُ إلَّا على الأخبار العظيمةِ ذاتِ الشَّأن الجَلَلِ، ولذلك فإنَّ سياقَ النَّصِّ القرآنيِّ يُناسِبُه إيرادُ كلمةِ (النَّبأ)؛ لأنَّه متعلِّقٌ بأخبار المرسَلينَ السّابقةِ، وهي عظيمةُ الشَّأنِ عاليةُ القَدْرِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 238.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (نبأ).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 528 - 529.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»